المحاضرة الخامسة :

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي :

قال ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع : " فقال لي زهير ومن يريد بعد؟ قلت له : خاتمة القول، صاحب (أبي الطيب المتنبي)، فقال : اشدد له حيازيمك، وعطر له نسيمك، وانثر عليه نجومك، وأمال عنان الأدهم إلى طريق ،فجعل يركض بنا ،و(زهيرٌ) يتأمّل آثار فرس لمحناها هناك ، فقلتُ له: ماتتبعك لهذه الآثار؟ قال :هي آثار فرس (حارثة ابن المغلس)صاحب (أبي الطيب المتنبي)،وقصدي هو صاحب قنصٍ، فلم يزل يتقرّاها حتى دفعنا إلى فارسٍ على فرسٍ بيضاء كأنه قضيبٌ على كثيبٍ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وملأ رأسه عمامة حمراء، وقد أرخى لها عذبة صفراء ، فحيّاه (زهير)، فأحسن الردّ ناظراً من مقلة شوساء قد مُلِئتْ تيهاً وعجباً، فعرّفه زهير قصدي ،وألقى إليه رغبتي.....، قال: فأنشدني، وأكبرته أن استنشده ، فأنشدته قصيدتي التي أولها:

أَبَرقٌ بدا أم لمعُ قاصلِ ورجع صدىً أم رجع أشقر صاهلِ؟

فلمّا انتهيت، قال لـ (زهير) : إن امتدَّ به طرف العمر،فلا بدَّ أن ينفث بدرر، وما أراه إلا سيحتضر بين قريح كالجمر وهمّة تضع أخمصه على مرفق البدر، فقلت: هلّا وضعته على صلعة النسر، فاستضحك إليّ، وقال: اذهب فقد أجزتك بهذه النكتة ، فقلبته على رأسه وانصرفنا....."

التعريف بالكاتب :

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك... بن شُهيد الأشجعي القرطبي، ولد في قرطبة عام/ ٣٨٢هـ/ ، وتوفي عام /٤٢٦هـ/،وهو من بيت أدب ومجد.

كان جدّه وزير عبد الرحمن الناصر، وأديباً من أكبر الأدباء في عصره، وقد ورث ابن شهيد عن جدّه الصلة الحسنة بالأمويين وإن لم يستوزروه لثقل كان في سمعه. ويبدو أنه ورث عن آبائه مالاً كثيراً بعثره في اللهو والخلاعة،حتى ليقول عنه أبو حيّان: "إنَّ البطالة غلبتْ عليه فلم يحفل في آثارها بضياع دين ولا مروءة".كان مثقّفاً ثقافة واسعة بمعارف عصره، ولكنّه تميّز في الجانب الأدبي ،إذ كان شاعراً كبيراً كما كان كاتباً كبيراً أيضاً، ويدلُّ ما رُوِيَ عنه من آثارٍ أنّ نثره كان أكثر من شعره، وقد شهد له النقّادُ بمقدرته في النثر وتفوّقه.

أدرك الفتنة فغادر قرطبة إلى (دانية) _ إحدى المدن الأندلسية _ وقصد (مجاهد العامري) ،لكنّه لم يحصل على غايته، فعاد إلى قرطبة مُتكسّباً بشعره ومكتوياً بنار الفتنة .

لم يصل إلينا من آثاره النثرية إلا القليل ، فقد ضاع جزء كبير من رسائل ابن شهيد ،وهذه الرسائل موجودة في كتب الأدب وهو يخاطب الأمراء والوزراء، وقد ضمّنها كثيراً من الآراء النقدية ، إذ غلب عليها الطابع القصصي، وانتقد فيها عدداً كبيراً من النحاة والكتّاب والشعراء، ولا يخلو نقده من سخرية لاذعة وتهكّمٍ شديدٍ على خصومه، وكان ابن شهيد كثير الحسّاد والخصوم ، فقد ألّفَ هذه الرسالة دفاعاً عن أدبه.

تحليل النص:

أهمّ أثر تركه ابن شهيد هو (رسالة التّوابع والزّوابع)،و(التوابع):جمع تابع، والتّابع:هو الجنّي،والمقصود به الجنّي الذي يكون مصدر وحي للشاعر، و(الزّوابع) :جمع زوبعة ،والزّوبعة: الدخان الكثيف الذي يخرج مُمهّداً لظهور الجنّي.

تسمّى هذه الرسالة أيضاً بـ(شجرة الفكاهة)، ولم تصل إلينا كاملة، وإنما وصلتنا منها مقتطفات أوردها ابن بسام في كتابه (الذخيرة)، وقد خاطب بها كاتبها صديقه أبا بكر ابن حزم، وسمّاها باسم رسالة(التوابع والزوابع)لأنه بناها على جنّي تراءى له وهو ينظم شعراً فأجازه ، وهذا التابع يُدعى (زهير بن نمير)، ولما تعارفا طلب إليه ابن شهيد أن يلتقي توابع الشعراء والكتّاب الذين غَبروا، فأجاب طَلِبَته ،وحمله على جناحيه إلى وادي الجنّ، حيث التقى بكثير من توابع الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين، كما التقى توابع بطائفة من توابع كتّاب المشرق، وتدور القصة في الرسالة على أنه يلقى التابعَ للشاعر المشهور،فينشده شعراً لصاحبه، ثم ينشده ابن شهيد بعض شعره ، فيُعجب به ،ويُجيزه آية على قدرته البلاغية،وكذلك يلقى توابع الكتّاب أمثال:(عبد الحميد الكاتب ، الجاحظ، بديع الزمان الهمذاني)، فيعرض عليهم رسالته في وصف البرد والنار والحطب ، كما يعرض عليهم رسالته في الحلواء ،وأيضاً فإنه يعرض عليهم صفته لثعلب وبرغوث، فيستحسنون ما يعرض ويجيزونه.ووقف تابع الجاحظ عند سجعه،وقال له: (إنَّ كلامك نظم لا نثر)، فزعم أنَّ تلك صفة أهل بلده،وأنهم يعجبون بالسجع وطابعه، وهكذا تنفضُّ جموع الجنّ وهي تشهد بأنه شاعر بديع وكاتب بليغ.

والرسالة تفيض بروح الفكاهة كأن نراه يعرض لبركة ماء بإحدى جوانب وادي الجنّ،ومن حولها طائفة من حمر الجن وبغالها ،وتتقدّم له بغلة شهباء عليها جُلُّها وبرقعها فتنشده بعض الشعر،وأخيراً تقول له: " أما تعرفني أبا عامر؟ قلت:لو كانتْ علامة ،فأماطت اللثام فإذا هي بغلة أبي عيسى، والخال على خدّها،فتباكينا طويلاً،وأخذنا في ذكر أيامنا".وما من شكّ في أنّ هذا الجانب في (التوابع والزوابع)يُكسبها خفّة ورشاقة.ومن يرجع إليها

يجد ابن شُهيد لا يستخدم فيها دائماً أسلوب السجع،بل تارة يسجع وتارة لا يسجع ،وهذا هو معنى قولنا :إنَّ الكاتب الكبير في الأندلس لم يكن يخضع في صنع نماذجه لمذهب معيّن من مذاهب المشرق،بل كان يتقلّب بين المذاهب والمناهج المختلفة.

اتّخذ ابن شهيد النص وسيلة لعرض شعره والإعجاب به، وجعل الترحال والتنقل من مكان إلى آخر سبيلاً لصنع بيئة مناسبة يعرض من خلالها أفكاره، وأسهم تتابع الأحداث في تطّور السرد. وقد أفاد ابن شهيد من قصّة الإسراء والمعراج، فقد ألهمته كثيراً من الأفكار.

الغاية من الرسالة :

هدف ابن شهيد من نصه هذا هو إظهار تفوّقه على أقرانه من أدباء عصره، ومجاراته لكبار الشعراء، وقد اتّخذ هذا النص وسيلة لعرض محاسن أدبه شعراً ونثراً، فكانت الرسالة إطاراً للقصّ ،تسنّى للكاتب خلالها حشد كلّ النصوص الشعرية والنثرية والملاحظات النقدية ، وتعرّض لخصومه الذين عابوا أدبه ، وحاول إثبات تفوّقه عليهم من خلال التهكّم والسخرية ، ولا سيما بـ(أبي القاسم ابن الإفليلي)،فقد حاول ابن شهيد الغضّ من معاصريه الذين عابوا أدبه ،محاولاً إثبات ذلك من خلال ما أنشده من شعر، وألقاه من نثر.

الخصائص الفنية في الرسالة:

الزمن : عنصر الزمن في النص غير محدّد ،ممّا يُوحي بأنها ليست رمزاً لحدثٍ وقع بالفعل في زمن معيّن ، وهي مجرّدُ رحلةٍ خياليّة، وبذلك تختلف عن القصة التي تهتمّ بعنصر الزمن ، وتُحدّده بدقّة لتُشعر القارئ أنه قريب من الواقع،في حين أنَّ ابن شهيد في رحلته هذه تجاوز عنصر الزمن لينفي

صلتها بالواقع ، فالتركيز في النص قائم على الشخصيات والحوار، لا على الزمان والمكان.

الشخصيات في الرسالة :

من الشخصيات التي ظهرت في رسالة ابن شهيد الشخصية الرئيسة ،وهي شخصية القاص أو الكاتب (ابن شهيد) وتابعه (زهير بن نمير)، وتابع أبي الطيب المتنبي(حارثة بن المفلّس)،ولكن الشخصية المبرزة في النص هي شخصية (ابن شهيد)، ويظهر ذلك من خلال سيطرة ضمير المتكلّم الذي طغى على النص، مما يُؤكّد أنَّ الإعجاب بالذات هو الذي صدر عنه نص ابن شهيد، فقد خطّط لشخصياته تخطيطاً جيداً، بحيث أدَّت كلّ شخصية الدور المرسوم لها، وتتوزّع الشخصيات على فصول الرسالة الأربعة، ونلاحظ أنَّ كلّ فصل له شخصياته المستقلّة التي ينتهي دورها بانتهاء الفصل، ففي **الفصل الأول :** تحدّث ابن شهيد عن **توابع الشعراء**، وذكر منهم:(تابع امرئ القيس،وقيس بن الخطيم،وطرفة بن العبد،وأبي تمّام، والبحتري ،وأبي نواس، وأبي الطيب المتنبي).

وفي **الفصل الثاني**: تحدّث عن **توابع الكتّاب**.

ثمّ ينتقل **للفصل الثالث** ،وهو بعنوان **نقّاد الجنّ** ،عرض ابن شهيد في هذا الفصل مجلساً للنقد ،وتحدّث بلسان نقّاد الجنّ عن عدد من الآراء النقدية، ليُبرز تفوّقه في مجال النقد ،ومن هذه الآراء كمثال :موضوع السرقات الأدبية في الشعر والنثر.

وفي **الفصل الرابع** : تحدّث عن **حيوانات الجنّ**، هذا الفصل كان فصلاً متميّزاً ،فقد اعتمد فيه على السخرية بلسان حيوانات الجن، ووظّف هذه السخرية لخدمة هدفه.

تطغى شخصية الكاتب دائماً على الحوار والسرد من خلال إنشاد الشعر، ومن ثمّ إلقاء الخطب، ومن ثمّ الإجازة (اذهب فقد أجزتك).

يعتمد النص على تكثيف الحوار من خلال مقولة :(ومن تريد بعد؟) وهي عبارة التّخلّص، وفيها إشارة إلى أنّ جميع التوابع مسخّرة له ، ورهن لإرادته، وقد ظهر ذلك من خلال الأفعال المذكورة في النص :(اشدد له حيازيمك)،(عطّر له نسيمك)،(انثر عليه نجومك).... وكلّها تشير إلى الحركة والتّنقّل بين الأماكن ، وهي حركة تتسارع مع كلّ فعل يلي ماجاء في القول السابق ،مثل: (أمال)،(يركض)،(دفعنا)،(أسرع بنا)، وهذه الأفعال تحمل مدلولات حركيّة سريعة تُؤدّي في النهاية للتابع الذي يريد الكاتب الوصول إليه، وعندما تتباطأ الحركة (أي تتباطأ من أفعال المضارع للماضي) ومع الجمل الاسمية التي تدلّ على الثبات، والجمل الخبرية التي تُعرِّف بالتابع وصفاته.

ويتطوّر الحوار تدريجياً ليصل الكاتب إلى غايته ومقصده بعبارة (وألقى إليه رغبتي وإنشاد الشعر ،إلقاء الخطبة ، قليل النقد).

الألفاظ في النص:

غلبت ألفاظ الطبيعة مثل :(النسيم،النجوم،الفرس،...)،وهذا المعجم لا تعقيد فيه ،وهو بسيط وسهل، وقد أحسن ابن شهيد التوظيف في خدمة هدفه ،إذ تتآزر (تتكاتف) لتوحي بالعلوّ والزّهو والظهور واللمعان، وهو هدف الكاتب وغايته في إظهار علوّه وتفوّقه على أدباء عصره.

ومعجم اللون ك:(الأدهم ،بيضاء، حمراء، صفراء،...) ، إضافة لألوان البريق واللمعان مثل :(النجوم، درر، بدر،...)،وكلّها تتلاءم مع غرض الكاتب الذي أراد إثبات لمعانه بين أدباء عصره، وما استخدامه (الجواد

الأدهم)إلى جوار الفرس البيضاء إلا لإظهار حسن الجواد بالضدّ معنىً ولفظاً، فيبدو أكثر جمالاً.

الصور في النص:

نلاحظ أنَّ معظمها صور حسّية بصريّة مستقاة من الطبيعة ،كقوله:(انثر عليه نجومك)، وهي صورة فنية فيها الحركة والبريق ، وتُوحي بالرفعة ، وفيها الفعل (انثر) الذي يحمل دلالة حركيّة، والاسم (نجوم) التي هي في حركة دائمة.

في قوله:(لا بدّ أن ينفث بدر) هي صورة بصرية فيها اللون الدُّري الذي يدلّ على الصفاء والنقاء،وهي تنطوي على النفاسة الكائنة في هذا الحجر الكريم ،وما يتكلّفه المرء من جهد في سبيل الحصول عليه.

في قوله:(بين قريحة كالجمر)تصوير للمعنوي بالحسي ، وهي صورة بصرية فيها اللون المتوهّج .

ويمكن القول : إنّ معظم صور ابن شهيد في رسالته حسية بصرية ، ومردّ ذلك إلى أنه كان ضعيف السّمع، فقد أثّرت هذه العائقة في صوره ، فلا نكاد نجد صوراً سمعيّة .وقد اعتمد على التوازن في عباراته، وانتقل من صيغة المتكلّم أحياناً إلى صيغة المخاطب، لكسر الرتابة في النص ، وجاء الاستفهام في النص لتطوير العبارة (الانتقال من غرض إلى آخر) ، كقوله:(ومن تُريد بعد؟)،(وما تتبّعك لهذه الآثار؟).

الخاتمة :

إنَّ البعد الحضاري المتمثّل بارتباط أدب المغرب بالمشرق كان سبباً في ذلك الإبداع الأدبي الذي قدّمه ابن شهيد ، كما أنّ غايته في إثبات مقدرته الأسلوبية النثرية والشعرية والنقدية أمام المشارقة عن طريق مقابلة توابع

الشعراء والكتّاب ،وكسب اعترافهم بتفوّقه،ظهرت بوضوح في تفاصيل قصصه في (التوابع والزوابع) ،واستطاع بمقدرة وتفوّق الوصول إلى ما أراد.